# انفتاح العلوم الشرعية على علوم العصر بين الضرورة و التقوقع

أ.د. محمد خالد اسطنبولي

جامعة ادوار

**مقدمة:**

لقد جاء الإسلام ليقرر مبدأ عظيما و مهما وعميقا ودقيقا هو مبدأ الحرية ، التي ضيعت وأريد لها أن تضيع بفعل فاعل مستتر تقديره هو ؟؟ هذا مبدأ عام ، وواقع مرير ، إن تكبيل المسلم ، و الغلق عليه ، و الحجر هو إحدى الكبر أما إذا صدر هذا عن علماء و مثقفين فإنه سيكون كارثة على البيئة الإسلامية و الإنسانية ، ولهذا يحثنا الله سبحانه و تعالى في كتابه العزيز (**قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا**)[1]. وإذا كبل هذا العقل وسلب حريته لقرون ، ولدهر من الزمن ، فقد آن الأوان لتحريره من هذه الأغلال التي فرضت عليه ، إن توهم التعارض بين الدين و العقل و العلم وحصر المعرفة في الوحي ليس وحده ملكا لله ، بل العقل و الكون أيضا ملكا لله ، إن الحضارة الحديثة أصبحت حضارة العلم ، لا حضارة أمة بعينها ، وإن إغفالها يعد جريمة ، ونكرانا وانحرافا ، إن الانفتاح على العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع و علم النفس و علم الاتصال و علم السياسة و علوم التكنولوجيا .... بات ضروريا وواجبا على الأمة التعامل معها ، وليس من النافلة في شيء ،إن هذه العلوم و التجارب أضحت علوما إنسانية عالمية لا جنسية لها .

ومداخلتي هذه تدندن حول هذا الموضوع إلهام و الخطير مطبقا وشارحا لأنموذج دراسة مهمة قدمها عبد الحليم أبو شقة بعنوان " نقد العقل المسلم الأزمة و المخرج"

**إشكالية هذا البحث :**

هل علوم العصر ، وفهم الحضارة الحديثة و مشكلاتها أضحت من الوجوب و الضرورة في فهم الكتاب و السنة ؟ أم هي من نافلة العمل ؟

تمهيد

من هو أبو شقة ؟

هو عبد الحليم محمد أحمد أبو شقة ولد بالقاهرة سنة 1924م الموافق لـ1343 هـ .

بدأ حياته الدراسية في القاهرة ، وتدرج في مراحل تعليم مختلفة ، تخرج من كلية الآداب قسم التاريخ .

---

[1] - سبأ 46

تأثرت نشأة أبو شقة الأولى بعدة عناصر ، أولها سكنه بجوار مسجد صغير لإحدى الجمعيات الإسلامية ، وانخراطه في أنشطة تلك الجمعية .... تعرف على الشيخ خضر حسين وكان شيخا سابقا في الأزهر وهو جزائري كانت له أحاديث دينية وتربوية متنوعة ، كما تعرف أبو شقة على القاضي أحمد شاكر وكان قاضيا وكاتبا عصاميا مهتما باللغة العربية و الحديث و الشعر ، وتعرف أيضا على محب الدين الخطيب .....

عاش بين مصر و سوريا وقطر و الكويت ثم العودة إلى مصر

له مؤلفان مهمان

" تحرير المرأة في عصر الرسالة "

" نقد العقل المسلم الأزمة و المخرج " توفي أبو شقة رحمه الله سنة 1995 م

فرحمه الله رحمة واسعة .[2]

أما عن كتابه " نقد العقل المسلم ، الأزمة و المخرج " فيقول عنه د. محمد عمارة : هذا الكتاب صفحات من الإبداع الفكري الخالص .... ومضات فكرية ، وإلهامات إبداعية خالصة في الصدق و التجرد و العمق و النقاء فهو زفرات عقل ، تصاعدت في لحظات خلوة مع نفس كبيرة تحمل هموم الأمة الإسلامية بل و الإنسانية وتتعبد الله ، سبحانه و تعالى في محراب التفكير و التدبر و التعقل فيما آلت إليه أحوال المسلمين كافة ، ... فهو نظرات تأسيسية أرادها صاحبها – لبنات في عمران الاجتهاد الإسلامي الذي يمثل الفريضة الكبرى في واقعنا الفكري المعيشي ....[3]

**أزمة العقل المسلم عند أبي شقة :**

في هذه الجزئية أنا لا أحاول أن ألخص الكتاب ، بل سأخرج منه القضايا و الأفكار الإبداعية التي تخص موضوعنا وبحثنا .

سبق أن نوهت ونبهت إن الأمة الإسلامية حصلت لها مقاطعة وقطيعة لكل ما هو غير إسلامي – أي غير داخل في العلوم الشرعية – وقد وجدت أن هذه العلوم هي علوم عالمية مفيدة وفعالة في عمومها ولا جنسية لها بل لا دين لها عند بعضهم ، ولقد قررنا من قبل أن من الضرورة و الوجوب الانفتاح على علوم الدنيا كلها مع التدقيق و التمحيص و الحذر ، وأخص بالذات العلوم الإنسانية و الاجتماعية و الكونية ، وقضايا علم المنهجية و بالذات أنهاج التفكير ، الذي نادى به فريد الأنصاري : " لعل من أصعب ألازمات التي تعاني منها الأمة اليوم ، هي غياب العقل المنهجي ، أو التفكير الناهج ، أي الواضح و البين و المستقيم ، فإعادة تشكيل العقل المسلم الذي تنادي به اليوم ، إنما هي إعادة نهج له من جديد ، أي أقامته على نظام واضح مستقيم ، إن الارتجال ،و التلقائية غير الواعية في معالجة شؤون الحياة دليل قاطع على

[2] مجلة حصاد الفكر ، القاهرة ، مركز الاعلام العربي ع 139 ( 2003) .

[3] نقد العقل المسلم ، الازمة و المخرج – عبد الحليم ابو شقة تقديم د. محمد عمارة ، ص 2

غياب الممارسة المنهجية ، فإقدامك على الشيء وأنت لا تعلم – قبل الإقدام عليه – لماذا تقدم عليه ، ولا كيف ، ولا أنت تكلف نفسك البحث لمعرفة ذلك إنما هو نوع من تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ..... و الدخول في عمل من غير تبيين و بيان ، هو عين الفوضى التي تلغي مقومات المنهج فيه [4]

وهذه الأزمة عرفها وهضمها واكتوى بنارها الأستاذ أبو شقة ونبه بأن العقل نعمة كبرى ، فإذا كانت نعمة الإيمان هي أعظم النعم ، فالنعمة التي تليها هي نعمة العقل الواعي الفاحص المتأمل ، إذ بدون هذه النعمة لا تحصل تلك ، وبدون هذه النعمة لا تعمل تلك عملها الأتم ، ثم بدون هذه النعمة لا تستقيم تلك على أمر الله ....، و إذا كبل العقل هذا ، وسلب حريته فلا بد من تحريره .....وما يعني تحرير العقل أكثر من إنقاذه من القيود التي تفرض عليه وتحول دون عمله الحر ؟ وهو ما يقوم به الدين الحق ..... و الدين قد يحرر العقل من الأغلال ، ولكن ورثة الدين قد يحجرون على العقل ويذلونه بما يلي :

- بتضييق نطاق عمله وحصره في حفظ المتون .
- أو بإهمال تغذيته بما ينفع لا نظر و لا بحث علمي رشيد ، ولا دراسة لرأي المخالفين ، و لا جدل ، و لا حوار معهم يتحرى الحق .
- أو بتقديس السابقين ، ومجرد تقديسك عقل غيرك يعني حتما إلغاء عقلك أنت .
- أو بالاحتراز المسرف في الوقوع في خطأ نتيجة الاجتهاد ، وهذا يعني أنه لا اجتهاد ويعين العقل على كمال التحرر ، التعليم ، تعلم سنن الكون ، وتغلب الغيب من الرسل و الوحي على أن التعلم غير الحفظ و غير التقليد ، و الحفظ مسخ للعقل ...[5]

وقد حاول الأستاذ أبو شقة تبيين مراحل انحطاط العقل المسلم ثم تعرض لأعراض انحراف العقل المسلم المعاصر وبين بأن انحراف العقل يعني أن هناك داء قد أصاب الكينونة البشرية ، ولتلك الحال أعراض التي تكشف عنها وذكر فيها :

أ–الغفلة عن القواعد الأصولية و القواعد الفقهية ، و من مظاهر هذه الغفلة

- عدم مراعاة الأولويات .
- عدم مراعاة درجات المصلحة و المفسدة .
- الغفلة عن دراسة الوضع و ملاحظة ظواهره عند تقرير الأحكام .
- الغفلة عن ضرورة التعدد ، و التنوع و النفور من محاورة المخالف .

ب – الوقوع في بعض المزالق الفكرية الخطيرة .

- التفسير بالرأي دون علم وضوابط .

---

[4] ابجديات البحث في العلوم الشرعية ا د فريد الانصاري ط 1 ، 2002 م 1423 ه دار الكلمة مصر ص 21 وينظر حول اعادة تشكيل العقل المسلم عماد الدين خليل ....

[5] نقد العقل المسلم ، ابوشقة ص 04

- الدين يحل جميع مشاكل الحياة – مبدأ قد يفهم خطأ– فيظن الناس أن حياتنا تستغني عن التفكير و العقل .
- الخلط بين ما هو دين منزلي من عند الله وبين ما هو بشري .
- الجهود على صحبة أفراد الجماعة ( التعصب ) و النفور من الأفكار المحايدة أو المعارضة و من النقد من الخارج .
- عدم تقدير العلوم الحديثة و إهمال الكلام في الفكر الحديث .

ج– وهناك أعراض أخرى قد تكون نفسية و سلبية أهمها

- غلبة روح الإنهزامية في مواجهة الحضارة الغربية
- عدم القول برأي لم يسبق أن قال به أحد القدامى .
- الانشغال بالجزئيات عن الكليات
- تقديم النوافل على الفرائض
- الإشكالية و الميل عن الأخذ بالأسباب
- الصنمية و شخصية المبادئ و الأفكار
- الخلط بين الثوابت و المتغيرات
- الميل إلى الارتجال و عدم التخطيط .
- النزوع إلى اتهام الأخر .
- فقدان الثقة بالنفس .
- الكسل العقلي .
- توهم التعارض بين الدين و بين العقل و العلم و محصر المعرفة في الوحي المنزل و حده ، مع إن الوحي ليس وحده ملكا لله ، بل العقل و الكون كله أيضا ملكا لله ،
- عدم تحديد المفاهيم و المصطلحات .
- اليأس من حل بعض المشكلات .

وهناك أعراض أخرى كثيرة يطول ذكرها وأختم بهذا الاهتمام بالتعاريف الحديثة التي لا مفهوم لها وحصرها بأمثلة ميتة و دائمة فمثلا فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين مثاله صلاة الجنازة ...[6]

**الرفض المطلق للحضارة :**

في الحقيقة و في الواقع ليس هناك رفض مطلق للحضارة ، فنحن أخذنا من تقنياتها و من طبها و من جمالها وزخرفها ثم رفضنا أمورا أخرى لا تقل أهمية عن الأولى رفضنا علم النفس جملة و تفصيلا و في ذهننا

[6] ازمة العقل ابو شقة 5، 6 ، 7 بتصريف .

انه علم النفس هو فرايد ، و أن فرايد هو أبو نظرية الجنس فأغلقنا الباب علينا بل ورفضنا علم الاجتماع لأنه هو دوركايم ، و رفضنا الدراسات المنهجية لأنها وافدة من الغرب ينبه أبو شقة إلى هذه المسالة بأن الرفض المطلق للحضارة الحديثة يعني عدم التعمق في دراسة تلك الحضارة وعدم فهمها ، و إذا نحن لم نفهم الحضارة الغربية جيدا وهي السائدة في عالمنا المعاصر ، فلن نعي عصرنا جيدا ، هذه واحدة .

وما دمنا لم نع عصرنا فلن نفهم الدين الفهم المطلق المنبثق عن عقل هذا العصر ولن نجتهد الاجتهاد المطابق لظروف العصر – هذه الثانية –

بل سنعتزل و نتقوقع لنعيش سعداء حالمين أو تعساء بعقلية أجدادنا الأقربين – هذه الثالثة – وهي ثالثة الاسافي .

إننا حين نأخذ عن الغرب و نتجاوز مشاعر الرفض ، لن نقف عند العلوم الطبيعية و ما نتج عنها من صناعة و تكنولوجيا – بل نأخذ و في يدينا ميزان الحق – كل جهد عظيم في مجال العلوم الإنسانية ، ولنحذر التطور الساذج الذي لا يرى الحضارة الإلهية أنظر كتابات و تحليلات أمثال أبي حامد الغزلي في القرن الخامس الهجري ، و إبن تيمية ، و محمد رشيد رضا وحسن البنا سيد قطب من أواسط القرن الرابع عشر الهجري

- و إذا جاز لآبائنا الرفض يوم كان الغزو ضاربا و شاملا (عسكريا و سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا ) لأنه لم يكن هناك سبيل للدراسة و التمحيص و الخيار ، فأما رفض يساعد على الصمود ، وإما قبول يساعد على الاستسلام .

إذا أجاز لآبائنا أن يقفوا موقف الدفاع ذاك ، يوم كان الغزو وهم محصورون في حصونهم الثقافية المهددة ، فإن الدفاع لا يجوز لنا اليوم ، ونحن نستطيع أن نقف موقف الدارس الناقد المستفيد من التراث من ناحيته ، كما نستطيع أن نقدم الإسلام كقيم رفيعة في وسط حصون الغزاة السابقين من ناحية ثانية .

حتى التعبير بالفكر المستورد لا أرى فيه ما يكفي لإدانة كل فكر يأتي من الخارج و الصحيح أن نصف الفكر بمضمونه الصالح أو الفاسد ، فكم من فكر مستورد وصالح ، و كم من فكر محلي و فاسد ...

ألم يكن الفكر الإسلامي فكرا مستوردا بالنسبة لشعوب سوريا و مصر و المغرب في القرن الأول الهجري ؟ و أليس الفكر الإسلامي اليوم فكرا مستوردا بالنسبة لشعوب آسيا و أفريقيا بل و شعوب أوروبا و أمريكا .

إن الحضارة الحديثة خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين أضحت حضارة العالم لا حضارة أمة بعينها و إن أمم العالم بأسرها تسهم في إعداد هذه الحضارة و تطويرها [7] .

[7] انظر ابو شقة ، مرجع سابق ، ص 18 .

إن سنة التعارف بين بني الإنسان واجبة قال تعالى: (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا)[8]. إن التعارف ليس هو التزاور أو الاتصال الأجوف بل هو التقاء للحضارات في قواسم مشتركة من غير ذوبان يقول مالك بن نبي : و النهضة الإسلامية تبدو وكأنها تريد أن تتخلص من فوضاها ، و هي تتطلع منذ عهد قريب إلى النظام و التنظيم ..... إن مجتمع ما بعد الموحدين يسعى نحو مرحلة من الحضارة تتسم بتركيب أصيل لعبقريته الإسلامية الخالصة مع العبقرية الحديثة .

لكن هذا يقتضي معرفة متعمقة للإنسان وإمكانياته ونقائضه وتقصيا واعيا للقيم الاجتماعية في الإسلام ، فعلم النفس و علم الاجتماع ضروريان إذن للكشف عن القيم الجديدة في النهضة الإسلامية ، ..... وعليه فلكي نعرف الإنسان ، ينبغي علينا أن نعرف أنفسنا .....[9]

**نحن جزء من كل:**

في هذه الجزئية ينبه الأستاذ مالك بن نبي بأن العالم الإسلامي ليس طائفة من الخلق منعزلة عما سواها ، فهي نادرة على أن تكمل تطورها داخل وعاء مغلق ، بل أنه يمثل في رواية الإنسانية دورين يقوم بهما في وقت واحد ، دوره فمثلا ، ودوره شاهدا ، هذا الاشتراك المزدوج يفرض عليه واجب التوفيق بين حياته المادية و الروحية وبين مصائر الإنسانية ، فهو لكي يقوم بدور مؤثر فعال في حركة التطور العالمي ينبغي أن يعرف العالم ، وأن يعرف نفسه ، و أن يعرف الأخرين بنفسه ، فيشرع في تقويم قيمه الذاتية ، إلى جانب تقويمه لما تملكه البشرية من قيم..[10]

**إعادة النظر في المناهج الدراسية .**

كثير مما ندرسه اليوم يدخل في تاريخ العلوم ، و لا يعدو أن يكون مقررا نظريا لا واقع له ، بل كثير من البحوث تنجز كماجستير أو دكتوراه أو بحوث أكاديمية أعدت للترقية لا تعدو أن تكون في أغلبها بحوثا لا حياة فيها إلا ما عصم الله . قال عبد المنعم القيعي في قانون الفكر مادة 395 :" لا تسمو حياة الفرد حتى يكون جزءا من كل ، و لا يجتمع الكل حتى يكون تاما فيما هو كل به ، وفكرة الكل هذه لا يصورها و لا يستوفي معانيها إلا الدين الصحيح

وفي المادة 397 : معرفة النتائج تساعد على التعلم متى بصر المتعلم بمواضع خطئه .....و نتيجة التعليم يجب أن نستفيد بها في كل ما نحتاج إليه ، فإن نسيت بسرعة فلا فائدة من التعليم ، وكلما اقترب المنهج من الواقع كان أثبت في الذاكرة .

المادة 398 – لكل مجتمع مواده وهيكله وحياته وصورته ، وعلى المصلحين دراسة كل الأحوال و الظروف ، ولا يقوم بالإصلاح المطلوب إلا ذو المرة السوي ، وعليه أن يكون ملما بتعاليم الإسلام ، وأن

---

[8] - الحجرات: 13.

[9] وجهة العالم الإسلامي ، مالك بن نبي ، دار الفكر دمشق ، 2010 ، ص 153 – 154 بتصريف .

[10] مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص 16 .

يدرس نفسية الأفراد وطبيعة المجتمع ، و النظم التي توجه سلوكهم ونشاطهم فلا غنى للمصلح عن علم النفس و علم الاجتماع و الاقتصاد و النظم فان هذه حياتهم و النظم صورة صادقة لها [11]

في الأخير حاول أبو شقة أن يزودنا بكتب مساعدة على اليقظة العقلية هي مقدمة إبن خلدون ، كتب مالك بن نبي ، أصول الفقه أبو زهرة – فتاوى يوسف القرضاوي، دستور الوحدة الثقافية ، و مشكلات في طريق الحياة الإسلامية لمحمد الغزالي ورفع الملام عن الأئمة الأعلام ، إبن تيمية ، تجديد التفكير الديني محمد إقبال و القراءة عموما محمود شاكر ، محمد الغزالي ، القرضاوي ، طارق البشري ، محمد عمارة ، كمال أبو المجد و اكتفى بهذا القدر فالكلام يطول و اللبيب بالإشارة يفهم و الله من وراء القصد و صلى الله على سيدنا محمد .

[11] قانون الفكر الاسلامي ، د عبد المنعم دار الطباعة المحمدية ، 1981م ص 231 ، 232 ، 235 بتصريف .